توسع أورارتو نحو شمال سورية
في القرنين التاسع والثامن ق.م

جباغ قابلو
جامعة دمشق

ليس من جديد القول أن منطقة شمال سورية كانت منذ أقدم العصور محطة للتنافس بين مختلف القوى الكبرى التي كانت فاعلة على المسرح السياسي للشرق القديم. وفي مطلع الألف الأول ق.م (خصوصاً القرنين التاسع والثامن ق.م) احتدم الصراع بين أورارتو وآشور للسيطرة على هذه المنطقة مع منطقة جنوب شرق الأناضول.

وكان لكل طرف أسبابه الخاصة للدخول في هذا الصراع. فبينما كانت هذه المنطقة تمثل مجالاً حيوياً لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لآشور لاستمرار حياتها ورخائها الاقتصادي. فإن أورارتو توسعت للسيطرة عليها لقطع طرق الإمداد عن أعدائها الآشوريين وبالتالي إحكام سيطرتهم على عالم الشرق القديم. ولا نستطيع أن نجزم بأن الأورارتيين كالآشوريين كانت دوافعهم اقتصادية بحتة في هذا المسعى. فكثير من الخامات التي كانوا سيحصلون عليها فيما لو سيطروا على منطقة الشمال السوري وجنوب شرق الأناضول وخاصة الحديد كانت متوفرة في بلادهم وكانوا يحصلون عليها من مناجمهم المحلية. وكانت صناعة التعدين بشكل عام متطورة إلى حدٍ كبير في أورارتو. الأمر الذي يرجح من وجهة نظرنا الدوافع السياسية لمحاولة أورارتو فرض سيطرتها على هذه المنطقة وذلك بغرض إضعاف منافسها الوحيد في عالم الشرق القديم آنذاك ونقصد بذلك آشور. ولما فشلت في تحقيق هذا الهدف انقلبت الأمور ضدها وبدأت آشور في فترة انتعاشها في عهد تغلات بلاصر الثالث تجعل من الأراضي الأورارتية هدفاً خاصاً لقواتها إلى أن جاءت حملة شاروكين الثاني ٧١٤ق.م التي شكلت حداً فاصلاً في تاريخ أورارتو. وقد اتخذنا من المصادر الأورارتية (مجموعة النقوش الأورارتية) وكذلك الكتابات الآشورية المتعلقة بشكل خاص بأورارتو منطلقاً لإعداد هذه الدراسة.

❀ ❀ ❀

ليس من جديد القول أن منطقة شمال سورية كانت منذ القدم محطة للتنافس بين الدول الكبرى، التي قامت في منطقة الشرق القديم. فالحثيون على سبيل المثال خاضوا في الألف الثاني ق.م صراعاً طويلاً في هذا السبيل مع كل القوى الكبرى، التي كانت متواجدة على الساحة الدولية آنذاك (بدءاً من مملكة يمحاض فالميتانيين والآشوريين وأخيراً المصريين في معركة قادش حوالي ١٢٨٠ق.م). وإن كانت المصادر الحثية لا تشير صراحة إلى الهدف الذي كان وراء محاولتهم فرض سيطرتهم على الشمال السوري وجعل مقر ولي عهدهم في مدينة كركميش، لمراقبة الأوضاع في هذه المنطقة فإنه ليس من الصعب ملاحظة أن وراء كل ذلك السعي لوضع هذه المنطقة الاستراتيجية تحت سيادتهم، وكذلك من المشكوك فيه أن المواد الأولية التي كانت منطقة شمال سورية غنية بها لم تكن محل اهتمام الحثيين[١].

وشهد مطلع الألف الأول ق.م، ظهور قوى وغياب قوى أخرى، كانت فاعلة فيما مضى على مسرح سياسة الشرق القديم. وقد حاولت القوى الجديدة، دأبها في ذلك دأب من سبقها من القوى التي كانت متواجدة في المنطقة في الألف الثاني ق.م، السيطرة على منطقة الشمال السوري. ونقصد بذلك أورارتو.

وعند طرحنا لمسألة محاولة التوسع الأورارتي في شمال سورية، لابد من أن تستوقفنا الأسباب التي كانت وراء محاولة التوسع هذه. وهل كانت نفس الأسباب التي دفعت بالآشوريين لمد نفوذهم، ومحاولتهم إخضاع هذه المنطقة مثلاً في نفس الوقت؟. أم كانت للأورارتيين أسبابهم ودوافعهم الخاصة بهم؟.

فمن المعروف أن مصير آشور واستقرارها ورخاءها الاقتصادي، كان يستند بشكل دائم على ما تقدمه لها منطقة شمال سورية، من منتجات ومواد أولية مختلفة[٢]. على اعتبار أن بلاد الرافدين، وخاصة بلاد آشور، كانت تفتقد ومنذ أقدم العصور للكثير من هذه المواد، التي كانت تعتبر أساسية ولاغنى عنها لحياة دول العالم القديم (وخاصة الأخشاب والمعادن، الأولى للبناء والثانية للأسلحة).

كما أن منطقة شمال سورية، كانت منطقة الوصل بين آشور وجنوب شرق آسيا الصغرى، التي كانت تقع فيها القاعدة الأساسية لتزويد الآشوريين، وكل الشرق القديم بالمعادن، وخصوصاً الحديد، الذي ازدادت الحاجة إليه، في مطلع الألف الأول ق.م مع بدء انتشاره على نطاق واسع واستخدامه في صنع الأسلحة. إضافة إلى ذلك، فإن الدول الواقعة في هذه المنطقة، سواءً تلك المنتمية إلى العالم الآرامي، أو ما سيسمى بالعالم الحثي الجديد، كانت تسيطر على الطرق التجارية وتفرض الضرائب على القوافل المارة بأراضيها لقاء السماح لها بالمرور الآمن مما أكسبها غنى وثروة لا يستهان بهما جعلها محط أطماع القوى الكبرى المحيطة بها وخاصة الآشوريين.

ورغم أن سيطرة أورارتو على شمال سورية كان سيسمح لها بالوصول مباشرة إلى القاعدة الأساسية لتجارة الترانزيت الدولية، وكان سيعطيها أيضاً فرصة ذهبية لتوحد في يديها المصدرين الأساسيين للحصول على المعادن وخصوصاً الحديد في الشرق القديم. الأمر الذي كان سيجعل منها قوة عظمى بالمقارنة مع باقي الدول التي كانت قائمة في المنطقة وخصوصاً دول شمال سورية الغنية ولكن الصغيرة، وكان من الممكن أن يجعل من آشور نفسها دولة تابعة لها[٣]، رغم ذلك فإننا نعتقد بأن هذه الأسباب وحدها (ورغم أهميتها) لم تكن الدافع وراء سعي أورارتو في فترة صعود نجمها في عالم السياسة الدولية للشرق القديم، في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن الثامن ق.م، لفرض سيطرتها على شمال سورية، وإنما كانت لها أهداف سياسية من وراء هذه العملية، تمثلت بإبعاد الآشوريين عن المنطقة وحصرهم في بلادهم الفقيرة، مما كان سيؤدي إلى إضعاف مركزهم ودورهم في عالم الشرق القديم فاتحاً المجال أمام الأورارتيين لفرض هيمنتهم على هذا العالم. ولقد تعرض لهذه المسألة بعض الباحثين مثل (باتسيفا في بحثه حول الصراع الآشوري الأورارتي على شمال سورية)[٤]، وبارامبدزه في بحثه حول أهمية شمال سورية بالنسبة لأورارتو)[٥] وسنحاول نحن هنا مناقشة هذه المسألة وذلك من خلال المصادر الأورارتية بشكل أساسي والعائدة لكل من أرغيشتي الأول وساردوري الثاني.

لقد بلغت صناعة التعدين مستوًى متطوراً في أورارتو وهذا ماتؤكده المعطيات الآشورية ونتائج التنقيبات الأثرية التي تجري في مختلف المناطق الأورارتية إضافة إلى النصوص التي خلفها الملوك الأورارتيين.

فمن المعروف أن المعابد الأورارتية كانت مراكز مهمة لتصنيع المعادن المختلفة وخصوصاً معبد الإله خالدي في موصاصير المركز الديني الرئيسي لأورارتو، حيث وجدت هنا عنابر ضخمة لسكب المعادن. وغيرها من الورشات التي كانت تنتج فيها مصنوعات برونزية ونحاسية ومن معادن أخرى.

وإذا ما عدنا إلى النصوص الأورارتية، فإننا نلاحظ أن هذه النصوص تذكر مختلف أنواع المعادن ليس فقط أثناء ذكر مقاطعات جنوب شرق الأناضول التي كانت على تماس مباشر مع الأراضي الأورارتية، أو أثناء ذكر بلاد الكولخيد حيث استورد الأورارتيون من هناك بعض المعادن. ولكن أثناء ذكر المقاطعات والمناطق الأورارتية نفسها.

وأما الحديد الذي شكل المعدن الرئيسي في مطلع الألف الأول ق.م فقد شغلت عملية تعدينه مكانة خاصة في أورارتو. حيث استخرج الأورارتيون الحديد من مناجم محلية، وتوصل كويربنغ الذي أجرى دراسة كرسها للحديد في أورارتو إلى نتيجة مفادها أن أورارتو امتلكت مناجم للحديد تعتبر الأفضل والأنقى من بين مثيلاتها في كل الشرق القديم. كما وجدت كميات ضخمة من هذه الخامات الحمراء التي تحتوي على نسب عالية من الحديد تصل حتى ٦٥٪(٦).

وكثيرة هي مناجم الحديد المعروفة في وسط أورارتو، وخاصة في مناطق بحيرة ڤان وبيلسك وموشكي وكذلك في الجبال الواقعة إلى الغرب من بحيرة أورميا. ويفترض ماربتروسيان أن منطقة بحيرة ڤان كانت تمثل القاعدة الأساسية لصناعة التعدين الأورارتية(٧).

وهنا لايمكن أن نتجاهل كمية الحديد الكبيرة التي تم اكتشافها في موقع توبراك كاله (توشبا) في نهاية القرن الماضي والتي تتراوح كميتها ما بين ٥٠٠ - ٦٠٠ قطعة مختلفة والتي تثبت وجود صناعة تعدين متطورة في أورارتو في هذا الوقت.

أما المصادر الكتابية الأورارتية فتاتي على ذكر الحديد مرة واحدة وذلك أثناء سرد الملك ساروردي الثاني أخبار حملته إلى بلاد الكولخيد(٨) وذلك على الشكل التالي:

« ساروردي يقول: قمت أنا (بحملة) ضد بلاد كولخا، البلاد أنا ......، مدينة إيلداموشا، مدينة ملكية ..... ملك بلاد كولخاخالي، المحصنة، بالحرب أنا احتليت سكانها أنا أحرقت؛ lu irdi(٩) بلاد كولخا، الذي كان هناك. أنا أمته (قتلته). أختاماً حديدية أنا حضرت (صنعت). وضعت كتابة في مدينة إيلداموشا، القلاع، المدن أحرقت (و) دمرت، البلاد هدمت، الرجال والنساء أسرت(١٠).

ولكن عدم ذكر الحديد في المصادر الأورارتية إلا على هذا النحو يجب ألا يجعلنا نعتقد أن الأورارتيين لم يعرفوا هذا المعدن أو لم يكن موجوداً في بلادهم، وأنها سعت للتوسع في الشمال السوري وجنوب شرق الأناضول سعياً وراء هذا المعدن.

وهنا نستطيع أن نسترشد بالرأي الذي تطرحه يانكوفسكايا، والمتعلق بهذه الظاهرة فيما يتعلق بآشور (أي قلة ذكر الحديد في المصادر الأشورية، رغم أنه يذكر في هذه المصادر أكثر بكثير مما يذكر في المصادر الأورارتية).

هذا الرأي الذي يتلخص بأن الحديث هنا يدور عن مادة استراتيجية وثمينة، تصل في أهميتها إلى أهمية المعادن الثمينة، إن لم تكن تفوقها في هذه المرحلة التاريخية. وكان الحديد كالمعادن الثمينة يخزن في المعابد والقصور، ولذلك كان يفضل عدم ذكره كثيراً(١١). وهناك أمر أخر نود الإشارة إليه هنا، وهو أن نقوش وحوليات الملوك الأورارتيين العائدة لهذه الفترة، وخصوصاً أرغيشتي الأول وساردوري الثاني نادراً ما تأتي على ذكر حصول هؤلاء الملوك على المعادن أثناء حملاتهم المختلفة وخصوصاً أثناء حملاتهم نحو شمال سورية.

فأرغيشتي حصل على جزية من ملك الدياأوخيين(١٢) شملت مايلي: ٤١ مينا ذهب خالص، ٣٧ مينا فضة، عشرة آلاف مينا نحاس(١٣). في حين أن ساردوري الثاني يذكر أيضاً ولمرة واحدة حصوله على معادن من ملك كوموخ(١٤) في شمال سورية بعد حملة قام بها ضد هذه البلاد وشملت الجزية مايلي:

٤٠ مينا من الذهب الخالص، ٨٠ مينا من الفضة، ٣٠٠ قطعة قماش، ٢٠٠٠ ترس نحاسي و١٥٣٥ كأس نحاسي(١٥).

في حين أن كل الملوك الأورارتيين يذكرون وبالتفصيل أعداد الماشية التي استولوا عليها وساقوها إلى بلادهم إضافة إلى أعداد الأسرى من الرجال المحاربين ومن المدنيين نساءً ورجالاً

وفتياناً. فارغيشتي يذكر أنه نتيجة حملة قام بها ضد بلاد بخاتي[١٦] والمناطق المجاورة قام بنقل ٨٦٩٨ رجل و١٨٠٤٧ امرأة أحياءً إلى بلاده[١٧].

وإذا ماقارنا ذلك بما حصل عليه شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ق.م) كعجزية من شمال سورية لتبين لنا الفرق وبسهولة. فهذا الأخير حصل من المعادن من دول شمال سورية في إحدى حملاته ضدها على مايلي: من سانغار ملك كركميش ٣٠ تالانت ذهب، ٧٠ تالانت فضة، ٣٠ تالانت نحاس، ١٠٠ تالانت حديد، ومن حِيان ملك سمئال حصل على ١٠ تالانت فضة، ٩٠ تالانت نحاس و٣٠ تالانت حديد، ، ومن خاطينا حصل على ٣ تالانت ذهب، ١٠٠ تالانت فضة، ٣٠٠ تالانت نحاس و٣٠٠ تالانت حديد[١٨].

إن تحرك الآشوريين باتجاه شمال سورية وجنوب شرق الآناضول، بدأ قبل فترة طويلة من ظهور الأورارتيين على مسرح التاريخ كدولة موحدة. وكان ذلك على صلة مع سعيهم لوضع طرق تجارة الترانزيت الدولية، المارة بهذه المنطقة تحت سيطرتهم. إضافة إلى وضع يدهم على «طريق الحديد» هذا الطريق الذي كانت تسيطر عليه دول الشمال السوري وجنوب شرق الآناضول[١٩].

إن التوسع الآشوري في القرن التاسع ق.م خصوصاً في عهد كل من آشورناصربال الثاني وشلمنصر الثالث بالنسبة لأورارتو يعني فصلها عملياً عن العالم السوري الحثي وقطع صلاتها الحضارية والاقتصادية مع هذا العالم، هذه الصلات التي كانت قد بدأت بإنشائها منذ بداية ظهورها كدول موحدة، ولذلك فإنها خاضت حرباً مصيرية لوقف هذا التوسع، معتمدة في ذلك إما على التوسع والتدخل المباشر، أو إثارة الدول القائمة في المنطقة ضد الآشوريين مادة لهم يد العون والمساعدة، وحتى المشاركة المباشرة في كافة الأحلاف التي جمعت دول الشمال السوري لمواجهة الخطر الآشوري. وإذا كانت أورارتو قد حصلت على المعادن من بلادها (كما أشرنا)، فإنها رغبت وبقوة بمنع الآشوريين من الحصول على هذه المعادن، خصوصاً أنّ بلادهم كما ذكرنا كانت تفتقد لمثل هذه الخامات. وبالمقابل فإن آشور كانت هذه الحرب بالنسبة لها مسألة حياة أو موت لما لهذه المنطقة من أهمية حيوية بالنسبة لها، لذلك قاومت بشدة وبكل الوسائل السياسية والعسكرية المتاحة أمامها، محاولة التوسع الأورارتي محاولة الإحتفاظ وبكل قوتها بمجالها الحيوي هذا في شمال سورية.

إن أول ذكر لأورارتو كدولة موحدة تلعب دوراً هاماً وأساسياً في منطقة المرتفعات الأرمينية يأتي في نقوش الملك الآشوري آشورناصربال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٨ ق.م). وبعد فترة من الإنقطاع يقوم خليفة هذا الملك وابنه شلمنصر الثالث في العام ٨٥٦ ق.م بحملة كبرى شملت بلاد الموشكيين (الزي) والتاوخيين، ومن هنا هاجم أورارتو من الخلف - من الشمال الغربي - وكانت نتيجة الهجوم هزيمة كبيرة لحقت بالأورارتيين، وقيام شلمنصر الثالث بغسل أسلحته في مياه «بحر نايري» أي بحيرة ڤان «أنا خرجت من سوغوني، نزلت إلى بحر نايري، غسلت في البحر أسلحتي، وقدمت الأضاحي لآلهتي»[٢٠].

بعد ذلك تضاءلت الصدامات المباشرة بين الجيشين الآشوري والأورارتي وأصبحت الحرب بينهما غير مباشرة وتستهدف بالدرجة الأولى، السيطرة على الدول الصغيرة الواقعة بينهما والتي كانت تشكل حاجزاً يفصل بينهما. وكان ذلك نتيجة الضعف الذي أصاب الدولة الآشورية، بعد وفاة شلمنصر الثالث نتيجة لعوامل داخلية كثيرة، مما منعها من التدخل المباشر والفعال ضد أورارتو أو غيرها من الدول التي كانت متواجدة على الساحة، وفي نفس الوقت فإن أورارتو لم تستشعر بنفسها القوة الكافية لمهاجمة آشور في عقر دارها.

ولكن الأمور تبدأ بالتحول لمصلحة أورارتو حوالي منتصف القرن التاسع ق.م، حيث يبدأ نجاح الملوك الأورارتيين بتنفيذ مخططاتهم الهادفة للوصول إلى الشمال السوري وإزاحة الآشوريين من هذه المنطقة، وذلك عن طريق ممارسة سياسية جديدة أساسها محاولة محاصرة آشور ضمن أراضيها تدريجياً، وذلك بهدف فرض السيادة الأورارتية على عالم الشرق القديم، هذه السيادة التي ما كان لها لتتحقق طالما وجدت آشور كدولة قوية مسيطرة على منابع المواد الخام وطرق التجارة والترانزيت. وقد اتبع هؤلاء الملوك في هذا السبيل سياسة تقوم على تطويق آشور من جهتين:

من الشرق حيث أخضعوا بنتيجة حملات مينوا ابن ايشبويني وابنه أرغيشتي بشكل شبه تام بلاد المانيين إلى الجنوب

من بحيرة أورميا ووصلوا في توسعهم في هذا الإتجاه حتى مناطق نهر الديالي ففي نص يسرد أخبار حملات مينوا يرد ما يلي: «مينوا يقول أنا جعلت طعماً للنار بلاد .... [ ] المانيين»[٢١].

أما أرغيشتي فيذكر في كتابة له «... في نفس العام أنا قمت (بحملة) إلى بالاد مانا ... بلاد بوشتو على نهر توران[٢٢] قلعة (؟) على الصخور (؟) محصنة، استوليت عليها حرباً، ورجالاً (و) نساء، أخذت من هناك ...»[٢٣]. وفي نص آخر له يقول «أرغيشتي بن مينوا يقول: خالدي القوي، أسلحة الإله خالدي القوية. الإله خالدي العظيم قام (بحملة) إلى بلاد مانا، احتليت أنا بلاد ايركبوني، وصلت (؟) حتى جبال آشور»[٢٤].

أما في الغرب فقد حاول الأورارتيون إخضاع دول الشمال السوري الحثية خصوصاً، كميليد وكوموخ القريبة منهم وإيجاد صلات وعقد تحالفات مع باقي دول شمال سورية، وخاصة أرفاد متزعمة العالم الآرامي في هذه الفترة، محاولين ربما الوصول إلى البحر المتوسط. فالملك مينوا بن إيشبويني يذكر في كتابة له عثر عليها على ضفة نهر مراد ـ سو إلى الشرق من يريفان، يذكر مايلي: «الإله خالدي القوي قام (بحملة)، مينوا بن إيشبويني احتل هو مدن بلاد شيبتريا، احتل هو بلاد خوزانا، احتل هو مدن بلاد تسوباني، وصل حتى بلاد خاتي ... الإله خالدي هو وضع هذا النقش (؟). في مدينة شيبتريا هو بنى معبد (؟) الإله خالدي. مدينة شيبتريا ... ملك مدن ملاطيه هو سامحه بشرط (دفع) الجزية»[٢٥].

وتكررت هذه الحملات في عهد أرغيشتي بن مينوا، ففي حولياته وفي الجزء الذي يسرد فيه أخبار حملات العام الرابع من حكمه يرد مايلي:

«أرغيشتي بن مينوا يقول ... قمت أنا (بحملة) إلى بلاد خاتي، احتليت أنا وادي (؟) بلاد النيرب[٢٦]، بلاد ... مدن [ ] أورماني، المحصنة حرباً استوليت عليها. مدينة [ ] أداني، المدينة الملكية، أنا احتليت.

الإله خالدي العظيم قام (بحملة) إلى بلاد خاتي، مقاطعات (؟) بلاد (قبائل) توايتخي أنا أبقيت عليها (رحمتها)، Salmthi مدينة ملاطية. وصلت أنا إلى مدينة بيترا»[٢٧]. وفي نص آخر يصف أحداث نفس الحملة يذكر أرغيشتي «مدينة ايربوني[٢٨] أنا بنيت من أجل بلاد بيانيلي[٢٩] القوية، ومن أجل إخماد (؟) البلاد المعادية. الأرض كانت فارغة لم يكن هناك أي شيء مبني. قمت بعمل عظيم هناك ٦٦٠٠ جندي من بلاد خاتي (و) تسوباني أنا أسكنت هناك ...»[٣٠] وفي مكان آخر من هذا النص يتابع بأن «الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر هو على الجيش الآشوري، انتصر على بلاد أرسيتاني، صرعهم أمام أرغيشتي.

وكما نلاحظ مما أوردناه سابقاً من نصوص فإن الضغط الأورارتي قد أصبح أكثر حدة على الآشوريين في عهد أرغيشتي ومن كل الجهات. ولكن رغم ذلك فإن الآشوريين حاولوا في بعض الأحيان الوقوف في وجه هذا الضغط الأورارتي ومقاومته، خصوصاً في عهد شلمنصر الرابع (٧٨١ ـ ٧٧٢ق.م) الذي تذكر حولياته قيامه بمهاجمة أورارتو أربع مرات كان هو شخصياً على رأس الجيش الآشوري في أحدها، وكان شمشي إيلو قائد الجيوش الآشورية على رأس حملة أخرى حيث يذكر في نقش له من تل برسيب أنه تمكن من إلحاق الهزيمة بأرغيشتي» الذي اسمه مرعب مثل عاصفة قوية والذي قوته واسعة»[٣١].

ولكن هذه الإنتصارات لم تكن كافية لوضع حد للتغلغل الأورارتي ومحاولة فرض النفوذ الأورارتي في الشمال السوري، حيث غابت آشور مرة أخرى عن مسرح الأحداث نتيجة لمشاكلها الداخلية، على عكس الأورارتيين الذين استمروا بتدعيم نفوذهم في عهد خليفة أرغيشتي، ساردوري الثاني (٧٦٠ ـ ٧٣٠ق.م) خاصة في النصف الأول من عهده الذي بلغت فيه أورارتو الذروة في قوتها وهيمنتها على مناطق الشمال السوري.

ففي كتابة تعود إلى السنوات الأولى من حكمه (ربما العام الأول) يذكر ساروردي مايلي: «ساروردي يقول: خرجت أنا وأمرت (؟) لتحتل مدينة ملاطية. ظهر خيلاروادا أمامي، انكب على وجهه، قبل أقدامي، أنا أظهرت (نحوه) الرحمة، نقلت أنا من هناك الذهب (و) الفضة، قطعان الماشية أنا نقلت إلى بلاد بيانيلي. هو (نفسه) أنا سامحت بشرط أن (يدفع) الجزية. تسعة حصون (مدن) أنا سلخت من هنا

(و) أتبعتها لبلادي : مدن خازاني، غاوراخي، توميشكي، أسين، خانينو، أروني، كولبيتاريني، تاشه، كوراتياشه، ميلوياني »[٣٢].

وفي نص آخر يقص أحداث الأعوام بين ٧٤٦-٧٤٤ق.م من حكمه يتعرض ساروردي لذكر بلاد كوموخ حيث يصفها بالبلاد التي لم يسبق لأحد أن وصل إليها من قبل « الاله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر هو على بلاد كوماخالي[٣٣]. هزمهم أمام ساروردي بن أرغيشتي. خالدي قوي، أسلحة الإله خالدي الأقوى. قمت (بحملة) أنا ساروردي بن أرغيشتي. ساروردي يقول: كوشتاشبيلي ملك بلاد كوماخالخي، كان مستقلاً (؟) ولا واحد من ملوك (أورارتو؟) لم يكن هناك (؟) ساروردي بن أرغيشتي يقول: تضرعت (أنا) إلى الإله خالدي سيدي إلى تيشبا، إلى شيفيني، إلى (كل) آلهة بلاد بياينيلي عما أريد (القيام) في البلاد المعادية. استمعوا (إلى سؤالي)، الآلهة فتحت الطريق أمامي. أنا توجهت، قمت أنا (بحملة) إلى بلاد كوماخالخي. مدينة أويتا، المدينة المحصنة أخذتها حرباً. مدينة حلبا[٣٤] المدينة الملكية (الواقعة) في منطقة بحيرات أنا احتليت مدينة بارالاني[٣٥] المدينة الملكية، أنا احتليت »[٣٦].

وكان ذروة انتصارات ساروردي، على ما نعتقد، الحاقه الهزيمة بالملك الآشوري، آشور نيراري الخامس. وكان ذلك في العام ٧٥٣ أو ٧٥٢ق.م حيث يرد في نص له عثر عليه في كنيسة صورب-بوغوص أن « الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر على مورينو ملك بلاد أوليكوخي، انتصر على تسينالبيي (من) قبيلة لويخو، ملك بلاد توليخو، انتصر هو على آشور نيراري ملك آشور، هزم بلاد آرم[٣٧] هزم مدينة نيهيريا المدينة الملكية لهذه البلاد »[٣٨].

وكان لهذا النصر أصداؤه الواسعة في منطقة الشمال السوري، حيث سارع متع ايل ملك أرفاد بنقض قسمه بالولاء والخضوع وتقديم الدعم العسكري، الذي كان قد أداه آشور نيراري عام ٧٥٤ق.م بعد حملة وحيدة قام بها هذا العاهل باتجاه الشمال السوري ناقلاً تحالفه إلى الملك الأورارتي ساردوري الثاني.

إن تسابق العاهلين الآشوري والأورارتي لكسب أرفاد إلى جانبه يكشف ما لهذه المنطقة من أهمية وحساب في ميزان القوى على الصعيد الدولي في هذه المرحلة. ولكن مما يلفت الإنتباه أن دول شمال سورية، وقفت طوال فترة الصراع الآشوري الأورارتي إلى جانب الأورارتيين، معتبرين، على ما يبدو الأشوريين الطرف الأكثر خطورة على وجودها واستقلالها.

ولكن الأمور بدأت بالتغير بالنسبة لأورارتو مع صعود تغلات بلاصر الثالث عام ٧٤٥ق.م العرش الآشوري. وإعادة تنظيم الجيش والإدارة في الدولة الآشورية. وكان النصر الذي حققه على تحالف دول شمال سورية المدعوم من أورارتو عام ٧٤٣ق.م بداية لمرحلة جديدة في تاريخ محاولة أورارتو فرض سيادتها على الشمال السوري بشكل خاص والصراع الأورارتي الآشوري بشكل عام.

إن أول مواجهة جرت بين الطرفين كانت على ما يعتقد في العام الثالث من حكم تغلات بلاصر الثالث. وفي نص مشوه تقريباً نقرأ عن حلف قام بين دول شمال سورية بمشاركة أورارتو وعن حرب نشبت بين أطراف هذا الحلف وبين تغلات بلاصر الثالث: « ... [في العام الثالث] لحكمي [ساردوري الأورارتي ثار ضدي وقام بالإتفاق مع] متع ايل [من بيت أغوشي ... سولومال الميليدي]، تارخولار [الجورجو] مي و[كوشتابي الكو] موخى [اعتمدوا] على قوتهم مجتمعين. قوة وعظمة آشور، سيدي [أنا اشتبكت ...] أنا أقمت لهم [مجزرة] »[٣٩].

ولابد من أن يكون لترتيب أسماء الملوك في هذا النقش دلالته أيضاً حيث يرد في البداية الطرف الأقوى فالأضعف وهكذا.

وهناك نص آخر من العاصمة الآشورية الكلخ يقص أخبار حرب نشبت بين ساردوري الثاني وتغلات بلاصر الثالث، وقد تكون هي نفس المعركة التي تحدث عنها النص السابق إلا أن النص هنا لا يأتي على ذكر جميع حلفاء ساردوري من ملوك دول شمال سورية باستثناء متع إيل ملك أرفاد مما يدل على المكانة والأهمية التي كانت تشغلها هذه الدولة في شمال سورية في هذه الفترة. وفيما يلي نستعرض هذا النص: « ساردوري الأورارتي ثار ضدي، وقام بالإتفاق مع متع إيل في كيشتان وحلبا مناطق مدينة كوموخ، أنا ألحقت به الهزيمة وكل معسكره أنا انتزعت منه »[٤٠].

لقد شهدت أعوام ٧٤٢-٧٤٠ق.م حملات متتالية قام بها تغلات بلاصر الثالث ضد أرفاد وذلك بهدف القضاء على تحالف دول شمال سورية، وبالتالي إخراج أورارتو من هذه المنطقة. وفي عام ٧٣٨ق.م جرت المعركة التي قد تكون الفاصلة في تاريخ التدخل الأورارتي في الشمال السوري وهي التي جمعت ساردوري وحلفاؤه من دول شمال سورية هذه المعركة التي جرت في كوموخ أيضاً وانتهت بهزيمة أخرى لدول هذا التحالف. إن هذه الهزائم المتتالية التي لحقت بالعاهل الأورارتي ساردوري الثاني، وضم الأجزاء الجنوبية الغربية من مملكته إلى الدولة الآشورية، أدت إلى فقدان الصلة الطبيعية التي سعى كل ملوك أورارتو لإيجادها مع دول شمال سورية.

هذا عدا عن أن هذه الهزائم أعطت المجال لسكان البلاد التي كان الأورارتيون قد أخضعوها، للإنتفاض عليهم وطردهم منها وخصوصاً فيما يتعلق ببلاد مانا. كما سببت هذه الهزائم أيضاً الكثير من المشاكل الداخلية، حيث تمرد حكام المقاطعات على ساردوري الذي أطاح به انقلاب على الأغلب كانت الضربة القاصمة التي لحقت بأورارتو، تلك التي ألحقها بها شاروكين الثاني بنتيجة حملته المدمرة ضدها والتي قام بها في العام ٧١٤ق.م وجال خلالها كل الأراضي الأورارتية تقريباً(٤).

ويسمح لنا نقش يعود لروسا الثاني بن أرغيشتي الثاني (٦٨٥-٦٤٥ق.م) بإمكانية الإفتراض، بأن الحاجز أو السد الذي حاول تغلات بلاصر الثالث أقامته في وجه تقدم الأورارتيين نحو الشمال السوري، لم يمنعهم أحياناً من التقدم والوصول إلى منطقة بيت زماني (آمد) وألزيو ومن المحتمل جرجوم أيضاً. غير أن هذا لا يعني أنه كانت هناك محاولات أورارتية منتظمة للعودة إلى هذه المنطقة في الوقت الذي كان فيه روسا يسعى جاهداً للإحتفاظ بعلاقات صداقة وسلام مع آشور هانيبال.

إن فشل أورارتو في إيجاد موطىء قدم ثابت لها في منطقة الشمال السوري أدى إلى خسارتها لمعركتها من أجل إبعاد آشور عن هذه المنطقة، ومحاصرتها في بلاد فقيرة بالمواد الخام وبعيدة عن طرق التجارة الدولية، وبالتالي أدت إلى خسارتها لمجمل الصراع مع الآشوريين لفرض الهيمنة على عالم الشرق القديم، هذه الهيمنة التي آلت إلى الآشوريين.

كما أن إهتمام أورارتو في هذه المرحلة يبدأ بالتحول إلى مناطق أخرى، ولاسيما فيما وراء القفقاس، حيث سعت للتعويض عن الأراضي التي خسرتها في الغرب.

الحواشي

(١) غيبور غادزه غ.غ: صراع الحثيين للسيطرة على شمال سورية في عصر الدولة القديمة، مجلة «أخبار التاريخ القديم» العدد /١/ عام ١٩٦٤ موسكو ص٤.

(٢) فرزات حرب: عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم (حتى أواخر القرن الثامن ق.م)، مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان - تموز ١٩٨٥. دمشق ص ١٨٢ وما يليها.

(٣) باراميدزة آ.آ.: حول أهمية سورية بالنسبة لأورارتو، مجلة أخبار متحف الدولة الجيورجي، العدد العشرون /ب/ تبيليسي ١٩٥٩ص٢٩٩.

(٤) باتسييفا س.م: الصراع الآشوري الأورارتي للسيطرة على شمال سورية، مجلة أخبار التاريخ القديم العدد /٢/ ١٩٥٣ موسكو.

(٥) بارامیدزة آ.آ: المرجع السابق.

(٦) بارامیدزة آ.آ: المرجع السابق ص٣٠٠.

(٧) ماريتروسيان أ.أ.: تنقيبات غولوفينو. ص ١٠٣ ١٩٥٤ يرفان.

(٨) Qulha: بلاد الكولخيد - تقع هذه البلاد على شواطىء البحر الأسود وتشكل جزءً من جمهورية جورجية الحالية.

(٩) LU irdi: من المحتمل أنها تعني حاكم أو والي في المصادر الأورارتية.

(١٠) ميليكيشفيلي غ.آ: النقوش المسمارية الأورارتية موسكو ١٩٦٠ ص ٢٨٢.

(١١) بارامیدزة: المرجع السابق ص١ ٣٠+ يانكوفسكايا: بعض الأسئلة المعلقة باقتصاد الامبراطورية الآشورية، مجلة التاريخ القديم العدد /١/ ١٩٥٦ص ٣٦.

(١٢) دياأوخي (diau (e) hi): تذكر أيضاً في المصادر الآشورية العائدة للفترة ما بين القرنين الثامن والتاسع ق.م بصيغة Daiani أو Daiaeni .والحدود الجنوبية لهذه المنطقة كانت تقع في منطقة أرضروم وأعالي الفرات الحالية وتمتد من هناك شمالاً.

(١٣) میلیکشفیلي: المرجع السابق ٢٣٥.

(١٤) Qumaha: بلاد كوموخ (كوماجن الكلاسيكية) تقع إلى الغرب من نهر الفرات إلى الجنوب من ميليد وامتدت حدودها حتى أرفاد تقريباً.

(١٥) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٢٨٥.

(١٦) بلاد خاتي حسب مفهوم النصوص الأورارتية كانت تعني أقصى جنوب شرق آسيا الصغرى.

(١٧) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص١٢٦.

(١٨) باتسيفا: المرجع السابق ص٢١.

(١٩) دياكونوف أي.م: أورارتو - فريجيا - ليديا في كتاب تاريخ العالم القديم موسكو ١٩٨٩ص٥٠.

(٢٠) دياكانوف أي.م: المصادر الآشورية - البابلية المتعلقة بأورارتو، مجلة أخبار التاريخ القديم العدد /٢/ ١٩٥١ ص٢٩٥.

(٢١) ميليكيشفيلي: المرجع السابق ص١٥١.

(٢٢) من المحتمل أن يكون نهر الديالي الحالي.

(٢٣) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٢٢٠.

(٢٤) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٢٣٩.

(٢٥) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص١٦١.

(٢٦) Niriba: تقع هذه البلاد في جبال كاشياري (طور عابدين الحالية).

(٢٧) Pitra: قد تكون نفسها التي ترد في النصوص الآشورية تحت اسم Pitru أو Pitura. وهي تقع عند مدينة دياربكر الحالية على الشاطىء الشرقي لنهر دجلة.

(٢٨) مدينة في جنوب القفقاس.

(٢٩) بياينيلي Bianili: الاسم الذي كان يطلقه الأورارتيون على بلادهم.

(٣٠) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٢١٦.

(٣١) دياكونوف: المصادر الآشورية ص.٣٠٣.

(٣٢) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٢٩٩.

(٣٣) هكذا أوردت في النص تسمية بلاد كوموخ كما وردت بصيغة كوماخالخي.

(٣٤) Halpa: إحدى المدن الملكية (المقرات الملكية) لبلاد كوموخ. وترد في النصوص الآشورية بصيغة Halpa. وكما يعتقد ميليكشفيلي فإنها قد تكون خالفاني الحالية إلى الجنوب الشرقي من مدينة عينتاب الحالية عند منعطف نهر الفرات إلى الجنوب.

(٣٥) من مدن بلاد كوموخ.

(٣٦) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٣٠٣.

(٣٧) بلاد Arm: يرد هذا الاسم في النصوص الآشورية بصيغة Airme. وهي على الأغلب اسم مقاطعة في شمال بلاد الرافدين. إلى الشمال الغربي من مدينة دياربكر الحالية.

(٣٨) ميليكشفيلي: المرجع السابق ص٣٠٠.

(٣٩) دياكونوف: النصوص الآشورية ص٣١١.

(٤٠) دياكونوف: النصوص الآشورية ص٣١٤.

(٤١) حول حملة شاروكين الثاني ضد بلاد أورارتو انظر: ميدفيدسكايا أي.ن. حول تحديد مسار حملة شاروكين في عام ٧١٤ق.م مجلة أخبر التاريخ القديم العدد /٢/ ١٩٨٩ ص١٠٠ ومابعدها.